آمال ضائعة

شوقي أبو ناجي - مصر

مع أن أبرهة عاد من مكة إلى اليمن مذموما مدحورا، ولم يحقق شيئا مما كان يصبو إليه من هدم للكعبة وإخضاع تهامة لسلطانه، إلا أن بقاءه في اليمن مع ولديه في أرض عربية؛ كان يمثل كابوسا وحد مشاعر العرب تجاهه.. هذه المشاعر التي لم تتوحد من قبل على شيء، ولهذا كان انتصار سيف بن ذي يزن على الأحباش نبأ أدخل السرور والارتياح على قلوب عرب الجزيرة، وخاصة القرشيين في مكة، الذين رأوا الخطر الداهم رأي العين، حتى إذا ما أسقط في أيديهم ؛ وظن الكثيرون أن ضرام الشر المتلمظ سيرسل ألسنته إلى مكة لا محالة. كانت عناية الله فوق قوانين البشر.. تمثلت هذه العناية في طير الأبابيل ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١ - ٥] فمنذ انتشر نبأ النصر الذي أحرزه سيف بن ذي يزن، ولا حديث لأحد في تهامة إلا عن هذا النصر المؤزر؛ وعودة ملك اليمن للعرب. وربما خاض بعضهم في تفصيلات الحرب؛ ووصف السفن التي أمده بها كسرى، وقد يدفع الإعجاب بشخصية سيف بن ذي يزن إلى أن تنسج الخيالات حوله قصصا أقرب إلى الأساطير.

اجتمع كبار قريش في دار الندوة يبحثون أمر إيفاد جماعة من رؤسائهم لتقديم التهنئة للعربي المنتصر؛ وإظهار شعور الفرحة وتقديم الهدايا. وتتعلق أنظار المتحلقين بعبد المطلب؛ وهم ينظرون إليه نظرة إعجاب وإكبار، وإن بعضهم ليعلن أن هزيمة أبرهة أمام الكعبة وأمام سيف بن ذي يزن ما كانت إلا ببركة دعاء عبد المطلب سيد قريش.

ويتساءل الرجال المتحلقون حول زعيمهم عمن يضمهم وفد التهنئة، ويعلن الجميع عن الرغبة في نيل هذا الشرف، والحظوة برؤية القائد العربي المظفر الذي رد الكرامة ومحا العار.

هذا الأمر وحده كان شغل الرجال الشاغل ومدار تفكيرهم إلا واحدا لم يشارك القوم أحاديثهم لأن فكرة غريبة ضربت حول عقله سياجا؛ فلا يفكر إلا فيها ولا ينفك يقلبها على وجوهها ليتحقق هدفه على أفضل صورة يصبو إليها. وعندما سأله عبد المطلب عن رغبته في الانضمام للوفد أجاب بكلمة واحدة: لا!

كانت عبارة صغيرة سمعها من أحد الشباب الذين يجلسون خلفه، حولت تفكيره تماما عما يخوض فيه القوم، بل عزلته عنهم، فلم يدرك شيئا مما قالوا أو ماذا سيفعلون.. قال الفتى الذي يجلس خلفه : إن سيفا استبدل الفرس بالأحابيش !!.. ومع ما في هذه العبارة من تحامل على سيف، إلا أنها فتحت أنظاره على شيء كان غائبا عنه..

وتساءل بينه وبين نفسه : متى كانت جميع أمور القبائل بأيديها؟! أليس سيف بن ذي يزن ملكا على اليمن بتفويض من كسرى؟ و النعمان بن المنذر يحكم الحيرة بتأييد من المدائن، والحارث بن جبلة ملك الغساسنة يحكم الشام بسلطان قيصر، حتى رؤساء القبائل في أواسط الجزيرة غير متحررين من التبعية بصورة أو بأخرى لسلطان أي من هذين المعسكرين ! فلا عليه أن يطلب من قيصر الروم أن ينصبه ملكا على قريش، ولم يعيه التفكير كثيرا فقد كان مقتنعا تمام الاقتناع بروعة الفكرة، والذي يطمئنه أكثر إلى تنفيذها، أنه اعتنق المسيحية مع ورقة بن نوفل وعبدالله بن جحش بعد أن هداه تفكيره مع أصحاب له إلى نبذ عبادة الأصنام التي جلبها عمرو بن لحي الخزاعي، والتي سعى بها إلى صرف الناس عن دين إبراهيم عليه السلام، واستخف عثمان وأصحابه بعقول من يتقربون إلى أحجار لا تضر ولا تنفع.. بل إنهم يتذللون خاضعين أمامها !! فإذا كانوا كذلك من ضيق الأفق وضحالة التفكير، فأولى بهم أن يخضعوا لسلطان رجل ذكي مثله، يستطيع أن يقبض على أمور الحكم والشرف في مكة، والتي استقرت في جماعة لا يبدو أن شيئا منها سيخرج من أيديهم إلى واحد من بني أسد بن عبد العزى. (رهطه).

ولو أنه أنجب أولادا مثل عبد المطلب أو أمية أو نوفل، لجعل همه في تنشئة هؤلاء الأبناء، ولمهد لهم طرق السيادة والشرف، أما وإنه قد حرم الأبناء، فلا أقل من أن يعلي ذكر نفسه حتى لا تنساه الأجيال بعد رحيله إلى مثواه الأخير. وقد كان مطمئنا إلى ترحيب (يوسطنيوس الثاني) به، وإن الناس ليتحدثون عن الحفاوة البالغة التي قوبل بها الحارث بن جبلة من قبل الإمبراطور (جوستنيان) وعينه أميرا على جميع قبائل العرب في سوريا ومنحه لقب (فيلارك وبطريق)، وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور، وزاد قدره عندما انتصر على النعمان بن المنذر سنة ٥٥٤ م.. إذا فليس بينه وبين ذيوع الصيت والثراء العظيم سوى أن يقطع الطريق بين مكة والقسطنطينية مع أول قافلة إلى الشام، ولم يندم على ما فاته من هدايا سيف التي عاد بها وفد التهنئة، بل لم يلق بالا إلى ما سمع من مظاهر الحفاوة والتكريم التي قوبل بها الوفد، لأن الشاغل الوحيد الذي يدور في فلكه والذي سيطر على تفكيره، هو الهدف الذي لا بد أن يعمل على تحقيقه.

انطلق عثمان مع القافلة دون أن يسر إلى قريب أو صديق بما يدور في خلده، وما فكر أحد أن يكون لعثمان هدف غير التجارة شأنه شأن القرشيين جميعا. حتى رفاق الرحلة كان بمعزل عنهم بأفكاره، فما يشاركهم الحديث إلا نادرا، وإنه لحريص كل الحرص على ألا تنفلت منه عبارة أو لفظة تنم عن الهدف الذي انطلق من أجله.

وإنه ليتخيل القافلة بطيئة عما يجب أن تكون عليه من العجلة، وهو يتمنى أن تطوى الأرض من تحته ليبلغ الشام ثم القسطنطينية في أيام معدودات.. وانتهى السير بالقافلة إلى الشام ليتفرق أصحابها في

الأسواق، وليبحث هو عن الركب المتجه إلى عاصمة الحضارة الرومانية، حتى يبلغ مشارفها، وتراءت له تلالها السبعة تنهض بقاماتها الشامخة مطلة على البوسفور والقرن الذهبي وهي تتحدر ناحية بحر مرمرة، كما شاهد على البعد القباب البيضاء اللامعة للقصر الإمبراطوري ونهايات الأعمدة الرخامية وهي تحمل رسوما لم تتضح جلية لناظريها بعد، ولكنها ألقت في قلبه شيئا من الرهبة.

وكلما اقترب من المدينة ظهرت معالم هذا القصر العظيم، واقترب سور المدينة ؛ وتراءت البوابات الاثنتا عشرة وهي تتحلى بمظاهر الفخامة، وتتناثر على السور أبراج الحراسة التي تبدو كأنها معلقة في الهواء.

وتقدم عثمان إلى الباب المواجه للقصر الشامخ؛ فإذا به يبصر ما لا عين رأت من مظاهر الرفاه والثراء والنعمة، تبدو في مجموعة القصور التي تلي القصر العظيم، والكنائس التي تشق منائرها عنان السماء لتعلن في شموخ عن عقيدة أهل البلاد، وعن التقدم الذي أحرزت به سيادة العالم.

ومضى عثمان في ذهول يجوس خلال شوارع المدينة بادئا بالشارع الكبير الذي يتوسطها، ويضم أجمل وأرقى حوانيتها، حتى أفضى إلى سوق قسطنطين؛ فراعه ما رأى من تنوع الفنون التي لا تجتمع إلا في مدينة الحضارة، وإن التعجب الذي أحس به في أسواق بصرى ودمشق والحيرة واليمن ليتضاءل أمام التقدم الهائل والمدينة المترفة التي تتسم بها هذه المدينة الجميلة الرائعة، حتى إذا قضى أياما يهيئ نفسه فيها للمثول أمام حاكم أكبر دولة في العالم، أذن له في دخول الصرح العظيم.

ارتدى الثوب العربي الذي أعده لهذه المناسبة، وجعل يخطو ثابتا في ردهات القصر حتى بلغ قاعة العرش فخر ساجدا أمام الملك وزوجه صوفيا الجميلة، حتى إذا سمح له بالنهوض وقف يتظاهر بالخشوع أمام جلال الإمبراطور.

وعندما أشار إليه الملك بالجلوس استشعر العظمة التي تقمصته، وتمنى لو أن كل رجال قريش ينظرون إليه الآن ليبصروا بأعينهم كيف يجالس أعظم ملك في هذه الدنيا، وإذا كان بعضهم يتيه بلقاء الحارث بن جبلة، أو النعمان بن المنذر، وحتى كسرى أنو شروان، فإنه لقي هؤلاء جميعا؛ ودخل قصورهم، ولكن أين قصورهم جميعا من هذا البهاء الذي يبدو معجزة البشر؟، ومن أين لأي من ملوك الأرض المال الذي ينفق على مثل هذا الإيوان وما يحيط به من وسائل النعمة والترف.

وجمع عثمان شتات نفسه ليبسط أمام الملك ما جاء من أجله، ويشرح قيمة مكة في نفوس العرب على اختلاف انتماءاتهم، وأنه لو نصب أميرا على مكة من قبل عظيم الروم؛ لدانت له العرب جميعا ولكانت زيادة في ملكه كما حدث أن أصبحت اليمن زيادة في ملك كسرى.

كان يوسطنيوس وزوجه الملكة صوفيا ينصتان باهتمام إلى حديث عثمان وهو يرى الاهتمام على ملامحهما ؛ فيسهب في توضيح ما لمكة من قداسة ومكانة عظمى، وكيف أن البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام تهرع إليه القلوب من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، كما أنه ليس لمكة حاكم بالمعنى المعروف، كل ما هنالك أن بها بطونا تتقاسم الشرف، فإذا ما آلت إليه السيادة.. أبقى على مكانة هؤلاء واتخذ منهم وزراء وأعوانا.

كان يوسطنيوس على علم بكل ما قاله عثمان، ومع هذا أرجأ الرد حتى يفكر في الأمر ؛ وكان قد حان موعد السباق الذي يعد في المناسبات المختلفة في الميدان مترامي الأطراف الذي يقع جنوبي القصر والذي رصت فيه مقاعد متدرجة تتسع لقرابة خمسين ألفا من المتفرجين.

مضى الملك وزوجه برفقتهما الضيف العربي إلى المقصورة المعدة لذلك، وما أن ظهر الملك والملكة في المقصورة حتى تعالت الهتافات بحياتهما، وهما يردان على تحايا الرعية.

كانت ساعات قضاها عثمان في المقصورة الإمبراطورية وكأنها حلم جميل.وما كانت أحلامه لتصور له ترحيب الإمبراطور به إلى درجة أن يصطحبه

في ساعات متعته، وإن الألعاب التي شاهدها لتخلب اللب، وليس لأحد من أبناء صحرائه أن يتصور مدى هذا التنظيم والدقة والبراعة في الفنون، وكان قصارى ما رأى ألعاب النيرنجيات في أسواق فارس، ولكن الذي رآه اليوم شيء يفوق الخيال.

عاد الثلاثة إلى القصر الإمبراطوري ليجلس الضيف العربي إلى وليمة العشاء الفاخرة والتي لا يتسنى لأحد من العرب أو غير العرب أن يجمع على مثلها صنوف هذا الطعام وهذه الفواكه التي لا تجود بها إلا بلاد الشام والولايات الرومية.

وبينما القاعة في هدوء لا يقطعه غير صوت تقطيع الطعام، نظر الإمبراطور إلى عثمان فتوقف عثمان عن المضغ ليستمع إلى الخبر الذي من أجله تجشم الصعاب، فقد أخبره الملك أنه قبل ما عرضه عليه ولولا أنه كان على مائدة الطعام لقام يقبل رأس الملك وقدميه على ما تفضل عليه من عز الدنيا.

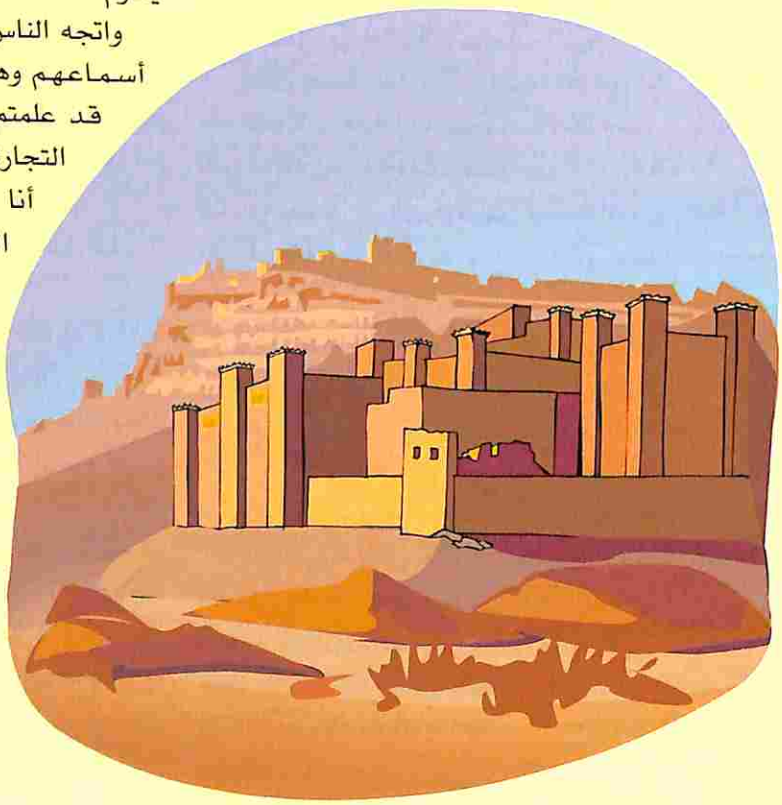

حمل عثمان كتاب الإمبراطور الذي يوليه فيه حاكما على مكة من قبله، وختم في أسفله بالذهب وهو يكاد يتقافز في دروب القسطنطينية من الفرح، ولم يحمل هذا الكتاب فحسب، ولكن الهدايا الثمينة التي تفضل الملك بها عليه تجعله يتيه فخرا على كل الدنيا، لقد أهداه الإمبراطور هدايا أثمن من أن تقدر بمال، حتى بغلته أهداها سرجا موشاة بالذهب، وما كان له أن يبقى في القسطنطينية بعد أن تم له ما أراد، وما أسرع أن تهيأ للرحيل لينضم إلى أقرب قافلة متجهة إلى الشام، لينطلق منه إلى حيث ينتظره عز الدنيا في مكة.

ما أن تراءى لعثمان الأخشبان في الأفق حتى تهيأ ليلبس الثوب الحريري المزركش الفضفاض الذي خلعه عليه يوسطنيوس، ووضع السرج الموشاة بالذهب على ظهر بغلته، ولم تسمح له العجلة أن يذهب إلى داره لينال قسطا من الراحة من وعثاء السفر، ولكنه انطلق إلى الحرم ليطوف بالبيت ثم يصيح: - ياقوم... ياقوم..

واتجه الناس يشخصون إليه بأبصارهم ويعيرونه أسماعهم وهو يقول:- يا قوم - إن قيصر من قد علمتم، أموالكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كفه، وقد ملكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ، والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع عنكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه.

وأذهلت المفاجأة الناس، ونزل عليهم الخبر كأسوأ ما يكون، فلا يتصور أحد من سادة الحرم أن تكون عليهم سيادة، وهم الذين سبق لهاشم أن أخذ لهم عهدا من الروم وغسان بالشام، وأخذ لهم نوفل عهدا من الأكاسرة بالعراق، وأخذ لهم المطلب

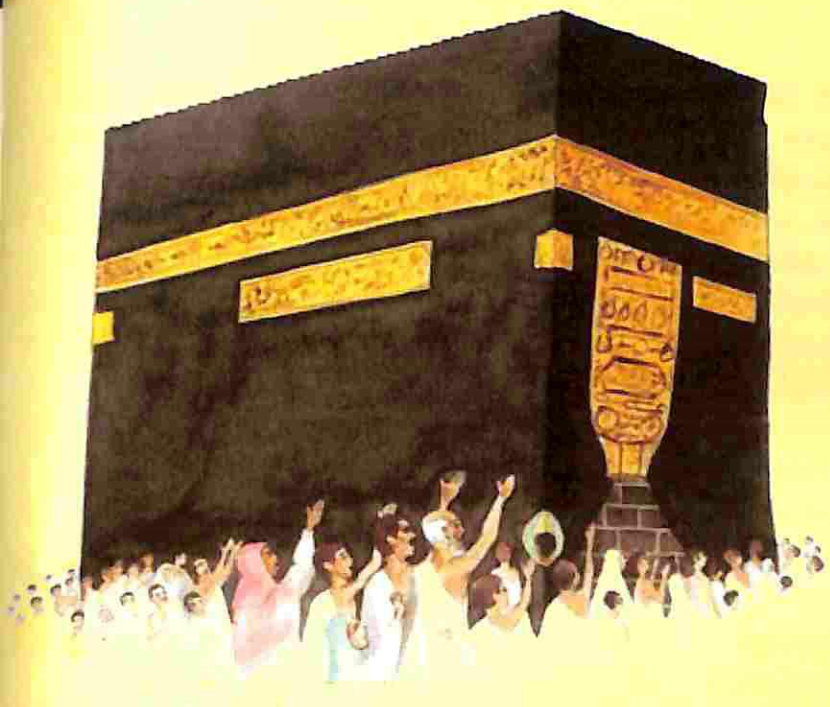

عهدا من حمير باليمن. فاختلفت قريش بهذا السبب إلى هذه النواحي.. ولكن - وهم يعلمون ما لقيصر من سطوة - اجتمع سادتهم في دار الندوة، وقلبوا الأمر على وجوهه، فلم يجدوا بدا من الرضوخ لهذا الأمر المهين الذي سيجبرهم - وهم السادة - على دفع الجزية وهم صاغرون بعد عقد التاج على رأس عثمان.

لم يمض غير يوم واحد على اجتماع سادة قريش في دار الندوة، وإقرارهم بالمهانة، حتى هبوا نحو صائح في الحرم:

- ياقوم... ياقوم..

وإذا بصاحب هذا الصوت أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد - ابن عم عثمان بن الحويرث - يصيح وحروف كلماته تحمل شظايا الغضب:

- عباد الله.. ملك بتهامة ؟!

وثاب الناس إلى رشدهم، وأدركوا الخطر الداهم الذي كاد يحيق بهم ليسلبهم أعز ما يتيهون به.. عزهم وكبرياءهم.. وصوت أبي زمعة يرن في آذانهم:

- إن قريشا لقاح لا تملك.. إن قريشا لقاح لا تملك!!

وهاج الناس بصيحات الاستنكار لما جاء به عثمان، ولو أنه بينهم في هذه الساعة لفتكوا به.

لم ينتظر عثمان حتى ينصرم الليل وانطلق يحث السير إلى الشام ثم إلى القسطنطينية ليشكو قومه إلى الإمبراطور ويستعديه عليهم ليبطش بهم ويمكن لعثمان من السيادة عليهم، فأمر الإمبراطور كاتبه أن يكتب إلى جفنة ملك عرب الشام ليجهز جيشا لحرب قريش وليرضخهم لأوامره، وقد كبر عليه أن تعصيه جماعة متفرقة من البشر لا يجمعهم جامع، ما إن يروا زحف الجند حتى يوفضوا إليه صاغرين.

وهمّ جفنة أن يجهز كتيبة لذلك حين أتته كتب من الأعراب المحيطين به تنهاه عن ذلك وتذكره بالمصير الذي حاق بفيل أبرهة وقد كان أكبر عدة وعتادا، وكيف فتك رب الكعبة بأصحاب الفيل.

جلس جفنة بينه وبين نفسه، ثم استشار المقربين منه فلم يشر عليه أحد بمهاجمة مكة حتى لا يلقى ما لقي أبرهة وجيشه ولكنه صار بين أمرين كلاهما مر.. إما أن يعصي هرقل فيعرض نفسه للعزل والعقاب، وإما أن يفعل ما أمره به؛ وذلك مالا يستطيع أن يقدم عليه.

واهتم لهذا الأمر همّا لا مثيل له، وعزف عن الطعام والشراب، وهجر أصحابه وسماره، حتى دخلت عليه زوجته - وهي أحد مستشاريه - لتطمئنه أنها وجدت الحل الذي ينقذه حتى من اللوم.. فيستحثها جفنة: قولي.. قولي بربك!!

- السم.. يقتل عثمان بالسم.. ولدي قميص مصبوغ بالسم كانت إحدى الكاهنات قد أهدته إلي لأهديه لمن أريد التخلص منه، وما عليه إلا أن يلبسه حتى يتسلل السم إلى جسده.. لا بد أن نهديه إلى عثمان، وأن يلبسه أمامنا ■